الباب العاشر

المناظرات والمحاورات

(١)
المناظرات

أ - معنى المناظرة وتعريفها

أنجب الازدهارُ العلمي في العصر الأموي فنّاً، يُعَدُّ من أمتع الفنون الأدبية وأنفعها، وأحفلها بحرية التعبير وأجملها، وأقدرها على اقتداح الأفكار بالأفكار، وتوليد الآراء من الآراء، واستنباطِ الأدلَّة من النصوص، والاستعانة بالمنطق على البرهنة، وهو فنُّ المناظرة. فما معنى هذا المصطلح؟ وما الشروطُ التي قَيَّد بها العلماءُ مَنْ ينبرون للاستباق في هذا المضمار الخطير؟

قال الزمخشري[١] [ت: ٥٣٨هـ]: «ناظرته في أمر كذا إذا نَظَر ونظرتَ كيف تأتيانه».

وكرَّر ابنُ منظور[٢] [ت: ٧١١هـ] كلام الزمخشري، فقال في تفسير المناظرة: «هي أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتُما فيه معاً كيف تأتيانه».

---

(١) أساس البلاغة/ نظر.

(٢) لسان العرب/ نظر.

وأوجز الفيّوميّ[١] [ت: ٧٧٠هـ] وأنجز إذْ قال: «ناظره مناظرةً، بمعنى جادله مجادلة».

وعرَّف الكفويُّ[٢] [ت: ١٠٧٤هـ] المناظرة، فقال: «هي النظرُ بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب، وقد يكون مع نفسه».

وقال محمد أعلى الفاروقي[٣] [ت: في القرن الثاني عشر الهجري]: «المناظرةُ: هي علمٌ، يعرف به كيفية طرق إثبات المطلوب ونفيه، أو نفي دليله مع الخصم. وموضوع هذا العلم: البحثُ. وتُطلق المناظرة في اصطلاح أهل هذا العلم على النظر في الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب، أي توجُّه المتخاصمين اللذين مَطْلَبُ أحدهما غير مطلب الآخر، وكان غرضهما من ذلك إظهار الحقّ».

وسمّى القنوجي[٤] [ت: ١٣٠٧هـ] المناظرةَ «أدبَ البحث» وقال في تفسيره: «أدبُ البحث علمٌ يوصَلُ به إلى كيفية الاحتراز عن الخطأ في المناظرة، وموضوعُه المناظرة».

وسمَّى د. جميل صليبا[٥] المناظرةَ مناقشةً، وقال في تفسيرها: «المناقشةُ في المسألة بحثُها، والفحصُ عنها، وتحليلُها.. ويُشترط في المناقشة أن يكون لدى المشتركين فيها آراء متعارضةٌ، وأن يتولَّى متكلِّم واحدٌ أو أكثر تحليلَ هذه الآراء ومقابلةَ بعضِها ببعض للأخذ بأقربها إلى الصواب».

إذا أعدت النظر فيما فسّر به اللغويون والفلاسفة المناظرة وجدت كلامهم متَّفقاً في المعنى مفترقاً في اللفظ، غير أنه أتى موجزاً كلَّ الإيجاز «في المصباح المنير» مفصَّلاً بعض التفصيل في «كشاف اصطلاح الفنون» وعلى سبيل الاستنتاج والتوسُّط بين هذه الأقوال يمكن أن تُعَرِّف المناظرة، فتقول: هي أن يتحاور في مسألة واحدة متناظران أو أكثر على أن يكون للمتناظرين آراء مختلفة، بغيةَ الوصول إلى رأي يُعَدُّ أقربَ الآراء المعروضة إلى الحقيقة، ولا يتأتَّى ذلك ما لم

(١) المصباح المنير/ نظر.
(٢) الكليات٤/ ٢٦٣.
(٣) كشاف اصطلاح الفنون/ ١٦٥٢.
(٤) أبجد العلوم١/ ٢٢٤.
(٥) المعجم الفلسفي ٢/ ٤٢٦.

يتجرَّد المتحاورون من الأهواء لكي يتمحَّض حوارُهم للحقّ الخالص.

ب- شروط المُناظِر والمناظَرَة

لَمَّا كانت غاية المناظرة كشفَ الأباطيل عن الحقائق، والوصولَ بالمجادلة من آراء، يُتَوهَّمُ فيها الصواب، إلى قول فَصْلٍ، لا تشوبه شائبةٌ من خطأ، فإنَّ العلماء قيَّدوا المناظرة بقيود تحميها من الزلل، واشترطوا في المُناظر شروطاً، تجنِّبه الزيغَ.

لقد التزم المتناظرون في العصر الأموي التزاماً عفويّاً بعضَ هذه القيود والشروط، لكنَّنا لم نجد بينهم من حدَّد وقيَّد، واشترطَ وضبط على النحو المفصَّل الذي وقَعنا عليه عند أبي حامد الغزالي [ت: ٥٠٥هـ] وعذرُهم أنهم كانوا يتحاورون بكثير من الكتاب والسنة، ويسيرٍ من المنطق والفلسفة. أمّا الإمام الغزالي فقد كان حظُّه من المنطق والفلسفة يقاربُ حظَّه من القرآن والحديث، وكانت براعتُه في مُحاجَّة الفلاسفةِ تعدلُ براعته في «إحياء علوم الدين» ولذلك قيَّد المُناظِرَ والمناظَرَة بثمانية شروط، نختار منها ما يلي[(١)]:

- «أن يكون المُناظر مجتهداً، يُفْتي برأيه، لا بمذهب الشافعيّ وأبي حنيفة وغيرهما».
- «ألَّا يناظر إلَّا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً».
- «أن تكون المناظرة في الخَلْوَة أحبَّ إليه وأهمَّ من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين، فإن الخلوةَ أَجْمَعُ للفهم، وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودَرْك الحقّ. وفي حضور الجمع ما يحرِّكُ دواعيَ الرياء، ويوجبُ الحِرص على نُصرة كلِّ واحد نفسَه مُحِقاً كان أو مُبْطلاً».
- «أن يكون في طلب الحقّ كناشد ضالَّة، لا يفرِّقُ بين أن تظهر الضالَّةُ على يده أو على يد مَنْ يعاونه، ويرى رفيقَه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرَّفه الخطأَ، وأظهر له الحقَّ».
- «ألَّا يمنع مُعينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل، ومن إشكال إلى إشكال».
- «أن يناظر من يتوقَّع الاستفادةَ منه ممَّن هو مشتغل بالعلم، والغالبُ أنهم

(١) ١/ ٤٣-٤٥.

يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر، خوفاً من ظهور الحق على ألسنتهم، فيرغبون فيمن دونَهم، طمعاً في ترويج الباطل عليهم».

حَسْبُك أن تعيد النظر في الفقرات الستِّ السابقة التي قَبَسْناها من كلام الغزالي لكي تدرك أن علماء المسلمين تَهَدَّوْا إلى الضوابط التي تضبط أدبَ المناظرة حينما صدعوا بما أمرهم به ربُّهم من الجدال بالتي هي أحسن؛ والتي هي أحسنُ تقضي بأن يكونوا حِراصاً على نُصرة الحق، وعلى أن يتجنَّبوا المهاترة في الحوار، والتعصُّب للأهواء والمصالح، والفُتيا بغير علم وسلطان مبين.

إن أولى الفقرات تشترط في المُناظِر أن يكون متضلِّعاً من العلم، وأن تكون طبقتُه فيما يناظر فيه قد ارتقت به من مستوى التعلُّم والدراية والفتيا بمذهب محدَّد من مذاهب الفقه،إلى مستوى الاستقلال بالرأي، والقدرة على الاجتهاد، والفُتيا بما يراه هو، لا بما يرويه عن شيوخه وكبار العلماء.

والثانية سخَّرت المناظرة لمعالجة القضايا الواقعية التي تهمُّ الناس، ويتعلَّق بها الحلال والحرام، وترتبط بها حقوقُ العباد، أمَّا الخوض في مسائل خيالية لا صلةَ لها بالحياة المعيشة فلا مسوغ له.

والثالثة- وفيها أهمُّ الضوابط التي تحمي المناظرة من الانحراف - ألَّا يَجْريَ الحوارُ على الملأ في محفل رسمي، وألَّا يرعاه خليفة أو أمير، لأن السلطة تجعل المتناظرين عُرْضةً لتأثير الأهواء السياسية. ومتى لابست السياسة العلم والدين فقدَ الحوارُ استقلاله ونزاهته، وتقيَّدت ألسنة العلماء بقيود الأمراء، فتحركت بما يُرضيهم، لا بما يُرضي الله.

والرابعةُ أن يكون الغرضُ من المحاورة الوصولَ إلى الحقّ بالتآزر بين المتناظرين لا بالتنافر، لأن انتصار الحقّ المجرَّد أهمُّ من انتصار الأشخاص. وعلى الخصمين أن يسخّرا كلَّ قدراتهما العقلية لهذا الغرض، وأن ينبذا الحرص على الظفر بإعجاب الناس، وهذا القيدُ يتطلَّب من المناظر أن يكونَ على حظٍّ عظيم من التجرُّد، والنزاهة والإيثار.

والرابعة أفضت إلى خامسة، وهي أن يفسح المجال في كل جدال لكل طرف أن يُدْليَ بما عنده من آراء، وأن يسوق بين يديه ما لديه من حجج، وألَّا يجد أحد المتناظرين أدنى غضاضة في مساعدة غريمه على نصرة الحق.

وسادسُ الضوابط، كما يستنبط من الفقرة الأخيرة أن تقصر المناظرة على

أهل الاختصاص في كلّ علم، فلا يُسْمَح فيها للصغار والأغمار بأن يقارعوا الأعلام الكبار. فمتى وجدت تلميذاً صغيراً يناظر عالماً كبيراً فاعلم أن المناظرة عُقدت إمّا لتعظيم الكبير وتضخيمه بغيةَ الاتساع في نطاق الشهرة، وإمَّا لتكبير الصغير، لأنه سُمِح له بعلمه القليل أن يجاريَ العلماء العظام، وبقامته القميئة أن يطاول العمالقة، والمناظرة في الحالين فاسدة، لاختلال كفتي الميزان.

جـ- أنواع المناظرات وموضوعاتها

نبخس الإسلامَ حقَّه حينما نجتزئُ منه بالشعائر والعبادات. وننكرُ على العرب عقولهم إذا توهَّمنا أنهم، حينما صلّوا وصاموا وطافوا بالبيت، عبدوا الله على سبيل الصَّدع بما أُمِروا به وحسبُ، ولم يتفكَّروا قبلَ أن يتخيَّروا، ولم يُفْضِ بهم التفكُّر إلى تمييز الحقّ من الباطل، والهدى من الضلال.

لقد ارتقى الإسلامُ بالعقل العربي إلى أفق رحب واسع الآماد، وأطلقه فيه، فإذا هو يتصوَّر الحياةَ والكونَ تصوُّراً جديداً على أساس عقيدة جديدة، وإذا هذا التصوُّر يحمله على أن يفكِّر في قضايا الإنسان، وهو ملتصقٌ بالأرض، وعلى أن يتدبَّر أسرار الخلق والكون إذا ارتقى من الأرض إلى السماء، لعلَّه يظفر بأجوبة عن الأسئلة الكثيرة التي تراوده، وهو يقرأ ما نزل به القرآن الكريم، وما حفل به الحديث الشريف من تصوّر للخالق والخلق، والحياة والموت، والعدل والظلم، والحرية والاختيار، وما لاحصرَ له من مسائل يتولَّد بعضُها من بعض.

وإذا كان الإنسان في عهد النبوة والخلافة الراشدة يجدُ من يجيبه، فإن انطواء هذا العهد طوى معه جيل الصحابة والتابعين، ومن تربَّوا في مدرسة النبوة، فغابت النجوم التي كان يتهدى بها الناس.

وفي العصر الأموي كان على العلماء- وهم ورثةُ الأنبياء- أن يُكبُّوا على دراسة الكتاب والسنة، وأن يتناظروا ويتحاوروا في كلِّ مسألة من مسائل العقيدة والشريعة والسياسة والاجتماع والقضاء. ولهذا ازدهرت المناظرات، وتعدَّدَت أنواعُها وأغراضها، واصطخبت المجالسُ بالمحاورات، واشترك فيها كثيرٌ من العلماء والفقهاء، والقادة والساسة، ورؤوس الفرق الدينية الناشئة، وزعماء الأحزاب المتعارضة. فما أبرزُ هذه المناظرات؟ وما أهمُّ الموضوعات التي شَغَلت العقولَ والألسنةَ في العصر الأموي؟

١) المناظرة في العقيدة

العقيدةُ من أخطر الموضوعات التي تناظر فيها الفقهاءُ وعلماءُ الكلام، وشارك فيها زعماءُ الفرق الدينية، ومكمنُ الخطر فيها ارتباطُها بالإيمان والإلحاد، والتوحيد والشرك، واعتمادها على النصّ مرة، وعلى العقل أخرى. ومع أن الخوض فيها مزلقٌ غيرُ مأمون، فقد شاركت فيها الفرقُ المختلفة، وإلى هذه المشاركة أشار د. شوقي ضيف، فقال[١]: «اشتعلتْ- يعني المناظرة- بين أرباب الفرق الدينية التي كانت تبحث في العقيدة والإيمان، وصفات الله، فكان هناك القدرية الذين قالوا بحرية الإرادة، وعلى رأسهم الحسن البصري. وكان هناك الجبرية الذين يقولون بتعطيل إرادة الإنسان، وبأنه مجبر، لا حول له على ما يأتي من الأمر ولا قوة. وكان هناك المرجئة الذين يفصلون بين الإيمان والعمل، ولا يحكمون على مسلم في أعماله، بل يفوضون الحكم إلى الله».

مَنْ يُصغ إلى ما تحاور فيه أصحابُ الفِرق في العصر الأموي من أمور العقيدة يجدْ أن مسألة الإيمان بالقدر كانت أكثر المسائل دوراناً على الألسنة، وأشدَّها إلحاحاً على العقول لارتباطها بسلوك الإنسان في الدنيا، ومصيره في الآخرة، ولما ينجم عنها من التردُّد بين الجبر والاختيار، ولما يترتَّب عليها من الثواب والعقاب، ولهذا شُغل بدراستها الباحثون العصريون كما شغل بالمناظرة فيها المتناظرون الأمويون.

قال د. عبد الله دراز[٢]: «القدرُ علم الله وإحاطتُه الأزلية بمقادير الأشياء وأحوالها التي ستكون عليها من مبدأ ونهاية وقوة وضعف وخير وشرّ، وما تقعُ فيه من زمان ومكان، وما يسبقُها من مقدّمات، وما يتبعُها من آثار، إلى غير ذلك، بحيث يكون إيجادُها بعدُ على وفق ذلك العلم». وقال أيضاً: «القدرُ جزءٌ من الإيمان بالله، وركنٌ من أصول الدين... وليس معنى الإيمان بالقدر اعتقاد أن ما علم الله وجودَه من المسبّبات لا بدّ من وجوده، ولو منقطعاً عن أسبابه، كما يزعم الجهلاء».

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر/ ٧٩..

(٢) المختار شرح أربعين حديثاً في أصول الدين/ ٢١٨ وما بعد.

وقبل أن نذكر شيئاً من المناظرات في القدر يحسنُ بنا أن ننبّه على أن «القدرية» هي الفرقة التي تنكر القدر لا الفرقةُ التي تؤمن به، وأن رأس القائلين بهذه البدعة هو مَعْبَد بن عبد الله الجُهَنيّ [ت: ٨٠هـ]. وفيما يلي نوضح رأي من ينفون القدر، ورأي من يؤمنون به: قال القدرية[١]- أي من أنكروا القدر -:

إن العبد صانعُ أفعاله، فهو الذي يقدّر أعمال نفسه بعلمه، ويتوجَّه إليها بإرادته، وينفذها بقدرته. والله تعالى لا يعلمها إلا بعد وقوعها، فضلاً عن أن يكون لإرادته أو لقدرته مدخل في إحداثها. وقال الأشعريون- وهم المؤمنون بالقدر -:

إنه لا يكون في الأرض من خير وشرّ إلّا ما شاء الله، وإن الأشياء تكون بمشيئة الله، فما شاء كان، وما لا يشاءُ لا يكون... وإن سيِّئات العباد يخلقها الله، وإن أعمال العباد يخلقها الله، والعبادُ لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً، وإن الله سبحانه وفَّق المؤمنين لطاعته، وخذَلَ الكافرين.

وأوَّلُ ما يطالعُك من السمات الأدبية في هذه المناظرات اتّفاقها في المعاني، واختلافُها في المباني، واصطباغُ أساليبها بأصباغ المتناظرين، وتأثر صياغتها بشخصياتهم. فإنْ دارت بين الأدباء والشعراء أتتك في إطار جميل من الصور الحية المتحركة، وتُرِك لك أن تستخرج الأفكار من بين الرسوم والألوان. وإن دارت بين الفقهاء وعلماء الكلام كانت أقربَ إلى التجريد، فاتَّجهت إلى العقل لإقناعه بالحجج، لا إلى النفس لإمتاعها بالصور. من الضرب الأول المصوَّر مناظرةٌ رواها ابن عساكر، فقال[٢]:

«اجتمع ذو الرمة ورؤبة عند بلال بن أبي بردة، وهو أمير البصرة. وكان رؤبة يثبت القدر، وكان ذو الرمة قدرياً، فقال لهما بلال: تناظرا في القدر.

فقال رؤبة: ما افتحصَ طائر أُفحوصاً، ولا تقرمص سبعٌ قُرْموصاً إلا بقضاء من الله وقدر.

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين/ ٢٩١.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٢٩، الأفحوص: حفرة تحفرها القطاة والدجاجة لتبيض وترقد فيها، القرموص: حفرة يحتفرها الرجل يكتن فيها من البرد ويأوي إليها للصيد، تقرمص السبع: دخل القرموص للاصطياد، ضرائك: فقراء جائعين سيئي الحال.

فقال ذو الرمة: والله ما قدَّر الله لذئب على أكل حلوبةِ عيائلَ عالةٍ ضرائك ذوي حاجة.

فقال رؤبة: أفبقدرته أكلها؟ هذا كذبٌ على الذئب.

فقال ذو الرمة: الكذبُ على الذئب أهونُ من الكذب على رب الذئب».

إنّ القارئ يستطيع أن يستنتجَ من الأُفحوص والقُرْموص، ومن الشاة والذئب أنَّ ذا الرمة كان ينفي الإيمان بالقدر ليحمِّل الذئبَ تبعةَ الافتراس، أي ليحمِّل الإنسانَ تبعاتِ أعماله. وأنَّ رؤبة كان يُثبتُ الإيمان بالقدر ليقول: إن الذئب افترس الشاة بتقديرٍ من الله وعلم وإرادة، أي ليقول: إن الإنسان لا يجترح ما يجترحُ من السيئات إلَّا بتقديرٍ من الله سابقٍ، وهو مع ذلك محاسب على عمله، لأن كل نفس بما كسبت رهينة.

ومن الضرب الثاني - وهو المناظرةُ بين الفقهاء وعلماء الكلام بأسلوب مجرَّد - مناظرةٌ جرت بين محمد بن عبيد بن أبي عامر المكي، وهو من الفقهاء الذين يناظرون بالكتاب والسنة، وغيلانَ بنِ مسلم وهو من علماء الكلام الذين يناظرون بالمنطق. وحججُ الأوَّل آياتٌ وأحاديث، وحجج الثاني أدلة عقلية منطقية. روى ابن عساكر المناظرةَ عن محمد بن عبيد، فقال[1]:

«قال محمد: لقيتُ غيلانَ مع نفر من قريش، فسألوني أن أكلِّمه، فقلتُ له: اجعل لي عهد الله وميثاقه ألَّا تغضب، ولا تجحد، ولا تكتم. فقال: ذلك لك. فقلتُ: نشدتُك بالله هل في السموات والأرض شيءٌ قطُّ، وخير وشرٌّ لم يشَأْه الله، ولم يعلمه الله حتى كان؟

قال غيلان: اللهم، لا.

قلت: فعلمُ الله بالعباد أكان قبلُ أو أعمالهم؟

قال غيلان: بل علمُه كان قبل أعمالهم.

قلت: فمن أين كان علمه بهم؟ أمن دارٍ كانوا فيها قبلَه، جَبَلَهم في تلك الدار غيرُه وأخبره الذي جبلهم في الدار عنهم غيرُه؟ أم دارٍ هو جبلهم فيها، وخلق لهم القلوب التي يهوون بها المعاصي؟

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٣/ ٤٣، ٢٩/ ٤٩.

قال غيلان: بل من دار جبلهم هو فيها، وخلق لهم القلوب التي يهوون بها المعاصي.

قلت: فهل كان الله يحبُّ أن يطيعه جميعُ خلقه؟

قال غيلان: نعم.

قلت: انظر ما تقول.

قال: هل معها غيرُها؟

قلت: نعم. فهل كان إبليس يُحبُّ أن يَعصي اللهَ جميعُ خلقه؟

فلَمَّا عرف الذي أردتُ سكت، فلم يردَّ عليَّ شيئاً. ثم قال: يا أبا عامر، هل لهؤلاء الكلمات من أصل؟ قلت: نعم، أجيبك بهن من كتاب الله عزَّ وجلَّ: إن الله خلق جميعَ خلقه من أربعة أشياءَ، لم يخلق شيئين من شيءٍ واحد، فجعل الطاعةَ في اثنين، وجعل المعصية في اثنين: فاللذان فيهما الطاعةُ هي فيهما إلى يوم القيامة. واللذان فيهما المعصية هي فيهما إلى يوم القيامة. إن الله خلق الملائكةَ من نور، وخلق الجانَّ من نار، وخلق البهائم من ماء، وخلق آدم من طين، فجعلَ الطاعةَ في الملائكة والبهائم، وجعل المعصيةَ في الجنِّ والإنس.

قال غيلان: صدقت».

ولعلَّك لاحظت أن المناظرة لم تستوفِ كلَّ القيود والشروط التي ضبط بها الغزاليُّ فنَّ المناظرة، إمَّا لأنَّ هذا الفن لم يكن قد بلغ في القرن الأوَّل ما بلغه في قرن الغزالي، وإمَّا لأنَّ راويَ المناظرة- وهو أحدُ المتناظريْنِ لم يروِ كلَّ ما قيل فيها، ليحرزَ قَصَب السَّبْق، وليدمغ خصمه بالسفاهة والهزيمة. ولك أن تعلّل هزيمة غيلان تعليلاً آخر، فتقول: إنه كان يدافعُ عن بدعة مرفوضة، ابتدعها جهمُ بن صفوان، ورفضها عامَّة الناس، وحاربتها الدولة الأموية، ولهذا لم يجرُؤ على أن يبوح بكلِّ ما في نفسه.

٢) المناظرة في الفقه والتفسير

يخيَّلُ إلينا أن المناظرات في الفقه كانت في العصر الأموي أَشيَعَ وأنفعَ من المناظرات في العقيدة، وأَن لشيوعها سبباً جوهريّاً، وهو أن المذاهب الفقهية

بدأت تتشكَّل، ورافق تشكُّلَها جدالٌ في فهم النصوص، ومناظراتٌ في استنباط الأحكام من الكتاب والسنة، واجتهادٌ من كبار العلماء فيما لم يُؤْثر مثلُه عن عصر النبوة والخلافة الراشدة. ويُخيَّل إلينا كذلك أن المناظرات في الفقه رافقتْ المناظرات في العقيدة أو سبقتْها، ولم تتخلَّف عنها، لأنها ألصق بالواقع، وأوفى بحاجات الناس، وأبعدُ عن المخاطر، وأقربُ إلى نفوس العامة، وأوضح أفكاراً وأدلةً.

وإلى شيوعها أشار د. شوقي ضيف، فقال[1]: «احتدم الجدالُ بين الفِرق كما احتدم بين الفقهاء في اجتهادهم، فكان الفقهاء يتناقشون، وكان المتكلِّمون من أصحاب الفرق الدينية يتجادلون..... وقد وصلتنا أخبار كثيرة عن تلك المحاورات والمجادلات والمناقشات. فهم يَرْوُون أن سليمانَ بن عبد الملك عقد مناظرةً بين قتادةَ والزهري، فغلب الأولُ، كما غلب إياسُ بنُ معاوية عبدَ الله بن شبرمة في مناظرة طويلة».

ولما كان القرآن الكريم المصدر الأوّل للفقه، فإن العلماء كانوا يتناظرون فيما يفهمون من آياته، وفيما يبنون على فهمهم من أحكام، يتَّصل بعضُها بالمشروع والممنوع، ويتَّصل بعضها بمكانة الإنسان بين الخلائق.

وأجمل ما في هذه المناظرات تلك التي تحلل وتعلل، وتقارن وتوازن، ولا تكتفي بالأدلة القطعية والظنية، كما يقول الأصوليون، وإنما تُعمل العقل في الأحكام، وتستخرج أسرار التحليل والتحريم، فتحريم الخمر ليس في حاجة إلى مناظرة لأنه مستنبط من أدلة كثيرة، غير أن بعض المفتونين بعقولهم القاصرة يحلو لهم أن يثيروا غبار الشك حول تحريمها، فيسألون أسئلة يتوهمون أنها تعيي الفقهاء فيتلقون أجوبة تلجمهم، فيندمون على توهُّم ما يتوهَّمون.

كان إياسُ بن معاوية أحدَ الأعاجيب في الذكاء، حتى غدا مضرب المثل فيه، ويتجلَّى جانبٌ من ذكائه في المناظرة التالية[2]:

«جاء دهقان إلى إياس، فسأله عن المسكر: أحرامٌ هو أم حلال؟

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر/ ٧٩.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٩٦، الكشوث: نبات أصفر مقطوع الأصل يتعلق بأطراف الشوك وغيره ويجعل منه في النبيذ.

فقال إياس: هو حرامٌ.

فقال: كيف يكون حراماً؟ أخبرني عن التَّمر أحلالٌ أم حرام؟

قال: حلال.

قال: فأخبرني عن الكشوث، أحلالٌ هو أم حرام؟

قال: حلال.

قال: فأخبرني عن الماء.

قال: حلال.

قال: فما خالف ما بينهما، وإنَّما هو من التمر والكشوث والماء، أن يكون هذا حلالاً، وهذا حراماً؟

فقال إياسٌ للدهقان: لو أخذتُ كفاً من تراب، فضربتُك به، أكان يوجعك؟

قال: لا.

قال: فأخذتُ كفاً من ماء، فنضحته في وجهك، أكان يوجعُك؟

قال: لا.

قال: فأخذت كفاً من تبن، فضربتُك به، أكان يوجعك؟

قال: لا.

قال: فإذا أخذت هذا الترابَ، فعجنتُه بالتبن والماء، ثم جعلتُه كتلاً حتى يجفَّ، فضربتُك به، أكان يوجعك؟

قال: نعمْ، ويقتُلُني.

قال: فكذا هو التمرُ والماءُ والكشوث إذا جمع، ثم عُتِّق حرم، كما يجفَّف هذا».

كان إياسٌ فقيهَ زمانه، وقاضيَ البصرة الألمعيَّ، وأحدَ المتضلعين من الشريعة، لكنه لم يُبارز الدهقانَ بسلاح لا دُرْبَة له به، وهو أحكام الإسلام في كلّ مسكر، وإنَّما بارزه بسلاحه، وهو العقل. ففرَّق وجمع، كما فرَّق الدهقان وجمع، وحلَّل وركَّب المادة التي صفعه بها، كما حلَّل الدهقان الخمرَ وركَّبها، ثم أنطق خصمه بما ألجمه، فإذا هو يردُّ على بهتانه بلسانه، فيسكت نفسه بنفسه.

وقد تزهدُ المناظرةُ في الأدلة العقلية، وتستوحي حُجَجها من كتاب الله، لا من سواه، ويشيعُ هذا الضرب من التناظر بين العلماء المتوفّرين على حفظ القرآن وتفسيره، وفي مجالس الخلفاء الذين عُرفوا بالورع والتفقه في الدين، على النحو الذي يتراءَى لك في المناظرة التالية[١]:

«حدَّث محمدُ بن كعب قال: كنَّا بِحُنَاصِرَةَ، في مجلسٍ فيه أميةُ بن عمرو بن سعيد، وعراكُ بن مالك، وعمرُ بن عبد العزيز.

فقال عمر بن عبد العزيز: ما أحدٌ أكرمُ على الله عزَّ وجلّ من كريم بني آدم؛ قال الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٩٨/ ٧].

وقال أميةُ بن عمرو مثلَ قول عمر بن عبد العزيز.

فقال عِراكُ بن مالك: ما أحدٌ أكرمُ على الله من الملائكة، هم خَدَمة دارَيْهِ، ورُسُله إلى أنبيائه، وما خدع إبليسُ آدمَ إلَّا أنه قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠-٢١].

وقال عمرُ بن عبد العزيز: ما رأيُك يا أبا حمزة- يعني محمدَ بن كعب- فيما امترينا[٢] فيه؟

قال: قلت: قد أكرمَ الله آدمَ، خلقه بيده، ونفخَ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، وجعلَ من ذريته من تزوره الملائكةُ، وجعل من ذريته الأنبياءَ والرسُّلَ، وأمَّا قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٩٨/ ٧] فهذه للخلائق كلِّهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٤٠/ ٧] فهؤلاء من الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ثم ذكر الجنَّ، فقال، إنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ﴾ [الجن: ٧٢/ ١٣-١٤] فهؤلاء من

(١) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٥٨، خناصرة كما ذكر ياقوت في معجم البلدان ٢/ ٣٩٠: بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية.

(٢) تجادلنا وتناظرنا.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ثم جمع الخلائق كلَّهم، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧/٩٨] فهؤلاء من الملائكة والإنس والجنّ، ليس خاصَّة لبني آدم».

ولعلَّك لاحظت أن في هذه المناظرات الدينية، سواءٌ ما عُقد منها حول العقيدة، وما أدير حول التفسير،يكتفي الأميرُ أو الخليفة بإثارة الأفكار، ثم يُصغي إلى الحوار إصغاءَ التلميذ المؤدَّب على النحو الذي فعله بلالُ بنُ أبي بُرْدة، أو يشارك فيها مشاركة مهذَّبة لا يتعالمُ فيها، ولا يفرضُ رأيه، بل يتقبَّل الآراءَ الأخرى بلا اعتراض ولا امتعاض، على النحو الذي تجلَّى في مجلس عمر بن عبد العزيز.

٣) المناظرة السياسية

ذكرنا في أكثر من موضع وموضوع أن السياسةَ في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ثم في عصر الأمويين لم تكن مفصولةً عن الدين، وأن الفرق الدينية كانت تلهجُ بالسياسة صراحةً كالشيعة والخوارج، أو تغمغم وتجمجم كالمرجئة والقدرية، لكنها لم تكن معزولة عن السياسة، ولا متنصِّلة منها.وربَّما ابتدأت المناظرة من الدين، وانتهت إلى السياسة، فالطبريُّ يُحدِّثنا عن مطرّف بن المغيرة بن شعبة والي (المدائن) من قِبَلِ الحجَّاج أنه دعا أصحابَ شبيبٍ الخارجيّ ليحاورهم في الدين، وينظر فيما يعتقدون. فكيف بدأت المناظرة؟ وإلى أي موضوع أفضتْ؟ قال الطبريُّ[1]:

«نزل شبيبٌ (بهرسير)، فبعثَ إليه مطرّفٌ أن ابعثْ إليَّ رجالاً من صلحاء أصحابك أُدارِسْهم القرآن، وأنظر ما تدعون إليه، فبعث إليه رجالاً منهم سويد بن سليم.... فلَمَّا دخلوا عليه قال لهم مطرف: قصّوا عليَّ أمركم وخبّروني ما الذي تطلبون. وإلام تدعون؟

فحمد الله سويدُ بن سليم، وأثنى عليه، ثم قال: أمَّا بعدُ، فإن الذي ندعو إليه كتابُ الله وسنة رسوله محمد ﷺ. وإن الذي نقمنا على قومنا الاستئثار بالفيء، وتعطيل الحدود، والتسلُّط بالجبرية.

(١) تاريخ الطبري٧/ ٢٦٠.

فقال لهم مطرف: ما دعوتم إلَّا إلى حقّ، ولا نقمتم إلّا جوراً ظاهراً. أنا لكم على هذا متابعٌ، فتابعوني إلى ما أدعوكم إليه ليجتمع أمري وأمركم، وتكون يدي وأيديكم واحدة.

فقالوا: هات، اذكر ما تريد أن تذكر، فإن يكن ما تدعونا إليه حقّاً نُجِبْك. قال: فإني أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة العاصين على إحداثهم الذي أحدثوا، وأن ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين، يؤمِّرون عليهم من يَرْضَون لأنفسهم، على مثل الحال التي تركها عليها عمرُ بن الخطاب، فإن العربَ إذا علمت أنَّما يراد بالشورى الرِّضى من قريش رَضُوا، وكثر تبعكم منهم، وأعوانكم على عدوّكم، وتمَّ لكم هذا الأمرُ الذي تريدون».

أرأيت كيف دعا مطرّف الخوارجَ ليدارسهم القرآن، فانتهتِ المدارسة إلى السياسة، وراح كلُّ فريق يعرض رأيَه في الحكم، ويستميلُ الفريق الآخر، ليطويه تحت جناحه، فتكون له الزعامة؟ ولو قرأت بقية المناظرة لوجدت الخوارج يوافقون مطرِّفاً، وينادون بالشورى، لكنهم ينكرون عليه وعلى أمثاله من صنائع الأمويين حقَّهم في القيادة،ويطالبونه بأن يبايع لشبيبِ بن يزيد الشيباني الذي كانوا ينادونه بأمير المؤمنين، فالمناظرةُ إذن لم تكن لتفسير القرآن، بل للظفر بالسلطان، ولم يكن محورُها الاختلافَ في أحكام الشريعة، بل الطموح إلى سدَّة الحكم.

لقد دأب الأمويون خلفاؤُهم والأمراءُ على مناظرة الخوارج لعلَّهم يقنعونهم باللسان قبل أن يحتكموا إلى السنان، ومن أشهر مناظراتهم وأدلها على التسامح مناظرةٌ حاورَ فيها عمرُ بن عبد العزيز رجلين من أنصار شوذب اليشكريّ، واسمه بسطام، قتل سنة ١٠١هـ- والمحاورةُ أوضحُ من أن تحتاج إلى توضيح وإليك خبرَ المناظرة ونصَّها[١]:

خرج زمنَ عمر بن عبد العزيز شوذبٌ في الجزيرة، فأرسل إليه عمرُ رسالة، يطلبُ منه فيها أن يرسل إليه رجلين صادقين، يتباحث معهما في الأمر، فإن كان الحقُّ مع عمر دخل الخوارج معه، وإنْ كان الحقُّ معهم نظر عمر في أمره. فأرسل شوذبٌ اثنين من أتباعه يناظرانه.

---

(١) الوثائق السياسية/ ٤٢٣، النهروان: كورة بين بغداد وواسط، وبها كانت وقعة الإمام علي مع الخوارج، وأهل النهروان هنا يقصد بهم الخوارج.

«فقال لهما عمر: أخبراني ما الذي أخرجكم مُخْرَجكم هذا؟ وما نقمتم علينا؟

فقال أحدهما: والله ما نقمنا عليك في سيرتك، وإنك لتجري بالعدل والإحسان، ولكن بيننا وبينك أمر، إنْ أنت أعطيتناه فنحن معك، وأنت منا، وإن منعتناه فلستَ منا، ولسنا منك.

فقال عمر: وما هو؟

قالا: رأيناك خالفتَ أعمالَ أهل بيتك، وسمَّيتَها المظالم، وسلكتَ غيرَ سبيلهم. فإن زعمتَ أنك على هدىً وهم على ضلال، فالعَنهم، وتبرَّأ منهم، فهذا الذي يجمعُ بيننا وبينك، أو يفرّق.

فتكلم عمر، فقال: إني علمت أنكم لم تخرجوا مَخْرَجكم هذا لدنيا، ولكن أردتم الآخرةَ، وأخطأتم طريقَها. وإني سائلكم عن أمور، فبالله لتَصْدُقُنّي عنها: أرأيتما أبا بكر وعمر؟ أليسا من أسلافكم، وممن تتولَّونهما وتشهدون لهما بالنجاة؟

قالا: بلى.

قال: فهل علمتم أن أبا بكر حين قُبض رسولُ الله ﷺ، وارتدَّت العربُ قاتلهم، فسفَكَ الدماء، وأخذ الأموال، وسبى الذراري؟

قالا: نعم.

قال: فهل علمتم أن عمر حين قام بعد أبي بكر ردَّ تلك السبايا إلى أصحابها؟

قالا: نعم.

قال: فهل برئَ عمرُ من أبي بكر؟

قالا: لا.

قال: أرأيتم أهل النهروان أليسوا من أسلافكم، وممَّن تتولَّون، وتشهدون لهم بالنجاة؟

قالا: بلى.

قال: فهل علمتم أن أهل الكوفة حين خرجوا إليهم كفُّوا أيديَهم، فلم يسفكوا دماً، ولم يخيفوا آمناً، ولم يأخذوا مالاً؟

قالا: نعمْ.

قال: فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا إليهم مع الشيباني وعبد الله بن وهب الراسبيّ وأصحابه استعرضوا الناسَ يقتلونهم، ولقُوا عبدَ الله بن خبَّاب بنِ الأَرَتِّ صاحبَ رسول الله ﷺ، فقتلوه، وقتلوا جاريتيْه. وصبَّحوا حيّاً من أحياء العرب، فاستعرضوهم، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال...؟

قالا: قد كان ذلك.

قال: فهل تَبرَّأ أهلُ البصرة من أهل الكوفة، وأهلُ الكوفة من أهل البصرة؟

قالا: لا.

قال: فهل تَبْرؤُون أنتم من إحدى الطائفتين؟

قالا: لا.

قال: أرأيتم الدِّينَ واحداً أم اثنين؟

قالا: بل واحداً.

قال: فهل يسعكم فيه شيءٌ يعجزُ عني؟

قالا: لا.

قال: فكيف وسِعَكم إن توليتم أبا بكر وعمر، وتولَّى أحدهُما صاحبه، وتوليتم أهلَ البصرة، وأهل الكوفة، وتولَّى بعضُهم بعضاً، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: في الدماء، والفروج، والأموال، ولا يَسَعُني- فيما زعمتم - إلّا لعنُ أهل بيتي والتبرُّؤ منهم؟ أرأيتم لعنَ أهل الذنوب فريضة مفروضة لا بدَّ منها؟ فإن كانت كذلك فأخبرني أيُّها المتكلم متى عهدُك بلعن فرعون؟

قال: لا أذكر متى لعنته.

قال: ويحكَ لِمَ لا تلعنُ فرعونَ، وهو أخبثُ الخلق، ويسعني- فيما زعمتم- لعنُ أهل بيتي والتبرُّؤ منهم؟ ويحكم، إنكم قومٌ جهال، أردتم أمراً، فأخطأتموه، فأنتم تردُّون على الناس ما قَبِلَهُ منهم رسولُ الله ﷺ. ويأمنُ عندكم مَنْ خاف عنده، ويخاف عندكم مَنْ أمِنَ عنده.

قالا: ما نحن كذلك.

قال عمر: بل سوف تُقِرُّون بذلك الآن. هل تعلمون أن رسول الله ﷺ بُعِث إلى الناس، وهم عبدةُ أوثان، فدعاهم إلى خلع الأوثان وشهادة أن لا إله

إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ فمن فعل ذلك حَقَنَ دمه، وأحرز مالَه، ووجبتْ حرمتُه، وكانت له أسوة بالمسلمين؟

قالا: نعم.

قال: أفلستم أنتم تَلْقَوْن مَنْ يخلع الأوثانَ، ويشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، فتستحلُّوا دمه وماله؟ وتلقون مَنْ ترك ذلك وأباه من اليهودِ والنَّصارى، وسائرِ الأديان، فيأمنُ عنكم وتحرمون دَمَه؟

فقال أحدُهما: ما سمعتُ كاليوم قطُّ حجَّةً أبينَ وأقربَ مأخذاً من حُجّتك. أمَّا أنا فأشهدُ أنك على الحقِّ، وأنا بريءٌ ممن برئ منك.

فقال عمر للآخر: فأنت ما تقول؟

فقال: ما أحسنَ ما قلت، وأبينَ ما وصفت! ولكني لا أفتاتُ على المسلمين بأمرٍ حتى أعرض قولك عليهم، فأنظر ما حجَّتُهم.

قال: فأنت أعلم». فلبث الأولُ مع عمر حتى مات، ولحق الثاني بأصحابه.

من يستقرئْ ما دار في العصر الأموي من مناظرات سياسية بين الحزب الحاكم والأحزاب المناوئة، يجدْ أن الخوارج ظفروا بأكثر المناظرات وأطولها، وأن حظَّ الشيعة من مناظرة الأمويين اقتصرت على أوجز المحاورات وأقلها.

قد يقال: علام احتدمَ الصراعُ الجدليُّ بين الأمويين والخوارج، والخوارجُ قلةٌ، وفَتَر بين الأمويين والشيعة، والشيعةُ كثرةٌ؟ وما علَّةُ هذا التناقض؟

يغلب على الظن أن لهذا التناقض أربعَ علل:

أولاها أن الخوارج- إذا استثنيت القَعَدَ- حزبٌ مقاوم مصادم، يحارب باللسان كما يحارب بالسيف، ولهذا كان يؤثر المنازلة[1] على المجاملة، والمقارعة على الموادعة، ولو أفضت به المقارعة إلى الموت.

والثانيةُ أن الشيعة بعد إخفاقهم في الثأر للحسين ﷺ مالوا إلى الدعوة الصامتة، وفضَّلوا العمل في السرّ على القول في العلن، وتحصَّنوا بالتقية، حتى إن شاعرهم الأكبر- وهو الكميتُ بن زيد- لم يجد أدنى غضاضة في مهادنة

(١) ومن المنازلة والمقارعة المناظرة.

الأمويين، والاعتذار لهم، على النحو الذي بيَّناه في كتابنا «الشعراء في العصر الأموي».

وثالثةُ العلل أنَّ الأمويين لم يكونوا حراصاً على أن يناظروا أهلَ البيت لإحساسهم أنَّ لدى الهاشميين كلَّ الحجج التي يحتجُّ بها الأمويون للدفاع عن حقهم في الخلافة، وأنهم يبزونهم في الشرف، وفي المكانة التي يتبوؤونها من قلوب المسلمين؛ لانتمائهم إلى الأسرة النبوية، فتجنبوا مناظرتهم لئلا يبوؤوا بخسران مبين.

والرابعة أن الأمويين كانوا يحاذرون أن يجاهروا بمناظرة الصحابة والتابعين، ولو لم يكونوا من أهل البيت، لعلمهم أن الكثرة الكاثرة من هذا الجيل لا تعرف المصانعة، ولا تثنيها هيبةُ الخلافة عن قول الحق. وحينئذٍ قد تنكشفُ أمور يُؤثرون سترها. ولهذا كانوا إذا أرادوا أن يتودَّدوا إلى صحابي أو تابعي ليصطنعوه يناظرونه في خلوة، لا على مسمع من الملأ ومشهد. قال ابن عساكر[1]:

«قدم المِسْوَرُ بن مخرمة وافداً على معاوية، فقضى حاجتَه، ثم دعاه فأخلاه (أي انفرد به).

فقال: يا مسور، ما فعل طعنُك على الأئمة؟

فقال المِسْوَر: دَعنا من هذا، وأحسن فيما قَدِمْنا له.

قال معاوية: لا والله لَتُكَلِّمَني بذاتِ نفسك، والذي تعيبُ عَليَّ.

قال المِسْوَر: فلم أترك شيئاً أعيبه عليه إلّا بيَّنْتهُ له.

قال معاوية: لا براء من الذنب، فهل تعدُّ يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة؟ فإن الحسنة بعشر أمثالها. أم تعدُّ الذنوب، وتترك الحسنات؟

قال المسور: لا، والله، ما نذكرُ إلا ما نرى من هذه الذنوب.

قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مِسورُ ذنوبٌ في خاصَّتك، تخشى أن تهلكك إن لم يغفرْها الله؟

قال مسور: نعم.

(١) مختصر تاريخ دمشق٢٥/ ٤٧.

قال معاوية: فما يجعلُك أحقَّ أَن ترجوَ المغفرةَ مني؟ فوالله لَمَا أَلِي من الإصلاح أكثرُ ممَّا تلي. ولكنّي والله لا أُخَيَّرُ بين أمرين: بين الله وبين غيره إلَّا اخترتُ الله على سواه. وأنا على دينٍ يقبلُ الله فيه العملَ ويجزي فيه بالحسنات، ويجزي فيه الذنوب، إلّا أن يعفوَ عمَّن شاء. فأنا أحتسبُ كلَّ حسنة عملتها بأضعافها.... فتفكّرْ في ذلك.

قال المِسْوَر: فعرفتُ أنَّ معاوية قد خصمني - أي غلبني - حين ذكر لي ما ذكر».

ترى أخَصَم معاوية المسور بالحجة الدامغة في آخر المناظرة بعدما ذكر له ما ذكر، أم قبل المناظرة حينما قضى حاجته؟

(٢)
المحاورات

أ- معنى المحاورة وتعريفها

قال ابن منظور[١]: «التحاوُرُ: التجاوُبُ، وتراجعُ الكلام. والمحاورَةُ: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة»، وقال الزبيدي[٢]: «المحاوَرة، والمَحْوَرَةُ، والمَحُورَةُ: كالمَشُورة من المشاوَرة... يقال: كلمته فما رجع إليَّ حِواراً، وحَواراً، ومُحاورةً، وحَوِيراً، ومَحُورةً، أي جواباً. تقول: سمعت حَوِيرَهما وحِوارَهما.... والمحاورة: المجاوبةُ ومراجعة النطق. والكلام في المخاطبة، وقد حاوَرَه، وتحاوروا: تراجعوا الكلامَ بينهم. وهم يتراوحون ويتحاورون». فالمحاورةُ في اللغة: تراجعُ الكلام بين اثنين أو أكثر.

وقال د. جميل صليبا[٣]: «حاوره محاورةً وحِواراً: جادَلَهُ. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٧] والمحاورةُ: المجاوبة، أو مراجعةُ النطق والكلام في المخاطبة. والتحاوُرُ: التجاوبُ. لذلك كان لا بدَّ في الحوار من وجود متكلِّم ومخاطَب. ولا بدَّ فيه كذلك من تبادُل الكلام ومراجعته. وغايةُ الحِوار توليدُ الأفكار الجديدة في ذهن المتكلِّم، لا الاقتصارُ على عَرْض الأفكار القديمة. وفي هذا التجاوب توضيحٌ للمعاني، وإغناءٌ للمفاهيم، يُفضيانِ إلى تقدُّم الفكر. وإذا كان الحوار تجاوباً بين الأضداد كالمجرَّد والمشخَّص، والمعقول والمحسوس، والحبِّ والواجب سُمِّيَ جَدَلاً».

أضاف المعجم الفلسفي إلى المعنى اللغوي أمرين: أولهما أن المحاورة تفتِّق ذهنَ المتكلم عن أفكار جديدة، تُضيفها إلى ما كان في عقله قبل البدء

(١) لسان العرب/ حور.
(٢) تاج العروس/ حور.
(٣) المعجم الفلسفي ١/ ٥٠١.

بالكلام، والأفكارُ الجديدةُ تنجم عن تلاقُح الأسئلة والأجوبة، والعرض والنقض، والموافقة والمفارقة، والتعليق والتذييل بين المتكلم والمخاطب. وثانيهما أنَّ المحاورة أعمُّ من المجادلة، لأن المحاورة لا يُشترط فيها غير شرط واحد، وهو انعقاد الكلام بين اثنين أو أكثر، أمَّا المجادلة فَيُشترط فيها شرطٌ آخر، وهو التناقضُ أو التعارضُ بين المتحاورين للوصول إلى رأي يجمع بينهما، أو إلى أن يتغلَّب أحد الرأيين على الآخر، فيظفر أحدهما بالنصر، ويبوءُ الآخرُ بالهزيمة.

ويخيَّل إلينا أن الشرط الثاني غير دقيق لأمرين: أولهما أن الله عزّ وجلّ لم يفرّق في كتابه- وكتابه أصحّ الكلام وأفصحُه- بين المحاورة والمجادلة، إذْ قال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١/٥٨]. فلو كانت المجادلةُ تخالفُ المحاورة لما جمع القرآن بينهما في آية واحدة، وربما كانت المجادلة أخص من المحاورة وأعنف. والثاني: أن اللغويين قيدوا المجادلة بالتعارض والتناقض وهذا القيد يقربها من المناظرة.

ومع إيثارنا هذا الترجيح، فإننا لم نستطعْ أن نلتزمه فيما كتبنا عن المناظرات، وفيما نكتب عن المحاورات لأمرين: أولهما أنَّ دلالات الألفاظ تتطوَّر فتتدانى بعد تباعدٍ، وثانيهما أن ما وَقَعْنا عليه من نصوص يجعلُ التمييز بين هذه الألفاظ وما يقاربها- ومنها المحادثة والمناقشةُ والمثاقفة والملاسنة- أدقَّ من أن يُدْرَك. ولهذا سلكنا ما فيه سماتُ التضادّ في سِلك المناظرات، وسلكنا ما كثر فيه التشاورُ، وقلَّ التناكرُ في سلك التحاور.

وإذا كان تمييز المحاورة من المناظرة مَطلَباً صعباً، يشقُّ علينا إدراكُه، فإن إفرادَ المحاورة بتعريف يخالفُ ما عرَّفنا به المناظرة في بداية هذا الباب أصعبُ وأشقُّ. ومع ذلك فإن أَبيْتَ إلَّا أن تعرِّف فقل على سبيل التقريب: المحاورةُ محادثة بين اثنين أو أكثر، سواءٌ أصدرت عن اختلاف أو ائتلاف، وافتراق أو اتفاق، ولا يشترط فيها تحديدُ الكلام في مسألة واحدة، ولا يطلب فيها التضادُّ بين المتحاورين، بل يُرْسل فيها القولُ على السجيَّة، لأنه قد ينطلق من وفاق أو شقاق، وقد ينتهي إلى تآزر أو تنافر.

ب- أنواع المحاورات وموضوعاتها

إذا تقبَّلتَ أن يكون الجدالُ رديف الحوار، فتذكَّر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٤] حينئذٍ، تنداحُ أمامك آفاق واسعة، لا حدودَ لامتدادها، وتقرعُ سمعَك أصداء متجاوبةٌ من محاورات، لا قدرة لك على إحصائها، تشغلُ العصرَ الأموي من بدايته إلى نهايته، وتنطوي على كلّ موضوع من موضوعات الحياة.

سيمتدُّ أمامك أفق من محاورات في العقيدة والدين، وأفق يتحاور فيه الساسة، وأفق يتجادل فيه العلماء، ورابع يصخب فيه الأدباء، وخامسٌ تناقش فيه التربية، وسادسٌ يشغب فيه أخلاط الناس ممَّن لا علم في كلامهم ولا سياسة ولا أدب. ولهذا كلّه آثرنا الانتقاءَ على الاستقصاء، واكتفينا بغرضين يمكن اعتبارُهما من أهم الأغراض، وأقربها إلى الأدب، وأحفلها بجمال الفن، وهما المحاورات الاجتماعية، والمحاورات السياسية.

١) المحاورات الاجتماعية

ذكرنا في أكثر من موضع وموضوع أن المجتمع العربي الإسلاميَّ في العصر الأموي- على ما شابَهُ من أوشاب الغناء والمجون- بقي دينيَّ الملامح، وملامحُه هذه كانت تزداد وضوحاً حين يتولى الخلافةَ إمامٌ ورعٌ من طبقة عمر بن عبد العزيز. فهو أنَّى سار سار الهدى في ركابه، وأيَّ موضوع ناقش كان الدين أوضحَ الأصوات فيه، حتى غدا ابنُه عبد الملك ضريعه في التقوى، أو أتقى منه. وإليك بعض حواره[1]: «دخل عبدُ الملك على عمرَ، فقال: يا أمير المؤمنين، ماذا تقولُ لربك إذا أتيتَه، وقد تركت حقّاً لم تُحْيِهِ، وباطلاً لم تُمِتْه؟

قال: اقعدْ يا بنيَّ، إن آباءك وأجدادك خدعوا الناس عن الحقِّ، فانتهت الأمورُ إليَّ، وقد أقبل شرُّها، وأدبرَ خيرُها، ولكن أليس حَسْبي جميلاً ألَّا تطلع الشمسُ عليَّ في يوم إلَّا أحييْتُ فيه حقّاً، وأمتُّ فيه باطلاً، حتى يأتيني الموتُ، وأنا على ذلك؟»

(١) مختصر تاريخ دمشق١٥/ ٢٠١.

ولم تكن هذه الملامحُ تستعلنُ في بيت عمر وحدَها، وأسرته الصغرى من زوجه وبنيه، بل كانت تتسعُ، وتتجلَّى في أسرته الأموية الكبرى إمَّا على سبيل الاقتداء، وإمَّا على سبيل الحياء، حتى إن مَنْ كانوا يهمّون بمحاورته ليثنوه عمَّا كرهوه، كانوا بعد محاورته ينثنون عمَّا يعتزمون، ومنهم عمته فاطمةُ التي جاءته متودِّدةً مُسْترفدة، وعادت متزهِّدة متعبِّدة، لأن دينه غلبَ دنياها، ودنيا الأمويين. قال أبو الفرج الأصفهاني[1]:

«لَمَّا ولي عمرُ بن عبد العزيز بدأ بلحمته وأهل بيته، فأخذَ ما كان في أيديهم، وسمَّى أعمالَهم (المظالمَ). ففزعتْ بنو أمية إلى فاطمةَ بنتِ مروان عمَّتهِ، فأرسلتْ إليه: إنه قد عناني أمر، لابدَّ من لقائك فيه. فأتته ليلاً، فأنزلها عن دابَّتها، فلَمَّا أخذتْ مجلسها قال: يا عمةُ أنت أَوْلى بالكلام، لأن الحاجةَ لك، فتكلَّمي.

قالت: تكلَّمْ يا أميرَ المؤمنين.

فقال: إن الله تباركَ وتعالى بعث محمّداً ﷺ رحمةً، لم يبعثْه عذاباً إلى الناس كافَّةً، ثم اختار له ما عنده، فقبضَه إليه، وترك لهم نهراً، شربُهم فيه سواءٌ، ثم قام أبو بكر، فترك النهرَ على حاله، ثم وليَ عمرُ، فعمل على عمل صاحبه، فلَمَّا وليَ عثمانُ اشتقَّ من ذلك النهر نهراً، ثم ولي معاويةُ، فشقَّ منه الأنهارَ. ثم لم يزلْ ذلك، يشقُّ منه يزيد ومروان وعبدُ الملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إليَّ. وقد يبس النهرُ الأعظمُ، ولن يروَى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه.

فقالت له: قد أردتُ كلامَك ومذاكرتك، فأمَّا إذْ كانت هذه مقالتُك فلستُ بذاكرةٍ لك شيئاً أبداً».

ولعلَّك لاحظتَ أن ما قاله الخليفةُ في المحاورة السابقة كان أضعافَ ما قالته عمتُه، ولا يعودُ هذا التفاوت إلى أن المنصب أطلقَ لسان عمر، وأغلقَ فم فاطمة، وإنما يعودُ إلى أنَّ العدل أسكتَ الظلم، والمساواة غَلَبت المحاباة، وإلى أن الإيمانَ أفصحُ لساناً من البُهتان، وأوضحُ بياناً من المَلَق، وقديماً قالت العرب في مثل هذا الموقف: «الحقُّ أبلجُ، والباطلُ لجلج».

(١) الأغاني ٩/ ٢٥٥، لحمته: قرابته.

وفي بعض المحاورات الاجتماعية- وخاصَّةً ما اتَّصل منها بالحياة اليومية- يبهتُ لونُ الدين، ويسطعُ لونُ الدنيا، ولا يُرْوَى هذا الضربُ في كتب الأدب والبلاغة لما فيه من أفكار، بل لما فيه من البراعة في الصناعة، والدقّة في الاحتجاج، والقدرة على تصيُّد الأجوبة المسكتة، والمباراة في المعاياة، كالحوار التالي الذي رواه العسكريُّ عن معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وهما مَنْ هما في الدهاء. قال أبو هلال[1]:

«دخل عمرُو بن العاص على معاوية، وهو يتغدَّى. فقال له معاوية: هَلُمَّ يا عمرُو.

فقال: هنيئاً يا أميرَ المؤمنين، أكلتُ آنفاً.

فقال: أما علمتَ يا عمرو أنَّ من شراهة المرءِ ألَّا يدعَ في بطنه مُسْتزاداً لمستزيد؟

فقال: قد فعلتُ يا أمير المؤمنين.

فقال: ويحكَ لمنْ بَقَّيْتَه؟ ألمن هو أوجبُ حقّاً من أمير المؤمنين؟

قال: لا. ولكنْ لمن لا يعذرُ عذرَ أمير المؤمنين.

قال: فلا أراك إلَّا ضيَّعْتَ حقّاً لحق، لعلَّك لا تدركه.

فقال عمرو: ما لقيت منك يا معاوية!؟ ثم دنا فأكل».

والسمةُ الغالبةُ على هذا النمط الواقعيةُ المفرطة، وتتجلَّى واقعيته في ضحالة الأفكار، وفتور الحوار، وبُرود المشاعر، ونُصول الألوان، والاكتفاء من الأدب ببعض النقد والنصح، والتربية والتوجيه.

٢) المحاورات السياسية

الحوارُ في السياسة أمتعُ من الحوارِ في شؤون الحياة اليومية، والمشكلات الاجتماعية، لانطوائه على أفكار تتصارع، وعواطف تتأرَّج، ومصالح تتصادم، ولكنها تتزيّا بزِيّ الدين، لكي تستعيرَ منه القدرةَ على التأثير. والمحاوراتُ السياسية بين الأحزاب المتنافسة والفرق المتعارضة ظلَّتْ مشتعلةً طوال العصر الأموي، من صعود معاويةَ بن أبي سفيان إلى سقوطِ مروان بن محمد.

(١) الصناعتين/ ٢٨.

وأَجْوَدُ ما في هذه المحاورات كشفُها عن أسرار الخلاف بين الفرق والأحزاب، وتعبيرُها عمّا كان يخامر زعماءَها من مطامح، وتأييدُها هذه المطامحَ بأدلة من الكتاب والسنة والسيرة النبوية، وهذه الأدلة قد تكون إلى تسويغ المطامح أقربَ منها إلى الجهر بالحقائق.

أضِفْ إلى ذلك أنك إذا أصغيت إلى هذه المحاورات بسمعك إصغاءَ المؤرخ المنصف، وقرنت بعضها إلى بعض بعقل القاضي النزيه وجدت أن في بعض الأفواه المتحاورة ألسنةً تتحرك بأوامر من المطامع الخفية، لا صدعاً بالحق الخالص لوجه الله، وأن في بعضها ألسنةً بارعة في الجدال تستطيع بالأسئلة المُحْرجة أن تقود الخصمَ من أنفه إلى حتفه، لا لدهاء السائل وحسب بل لدهائه وصراحة المجيب.

ومن هذا الضرب حوارٌ أورده الطبريّ في أحداث سنة خمسين، وإليك نصَّه[1]:

«... عن الشعبي أنه قال: أولُ رجل قتله زيادٌ بالكوفة أَوْفى بن حصن. بلغه عنه شيءٌ، فطلبه، فهرب. فعرضَ الناسَ زيادٌ، فمرَّ به. فقال: مَنْ هذا؟

قالوا: أَوْفى بن حصن الطائي.

فقال زياد: أتتْك بحائنٍ رجلاه[2].

فقال أوفى:

إنَّ زياداً أبا المغيرة لا ... يَعْجَلُ، والناسُ فيهمُ عَجَلَهْ
خِفتُك، والله، فاعلمنْ حَلِفي ... خوفَ الخفافيثِ صَوْلَةَ الأَصَلَهْ
فجئتُ إذْ ضاقَت البلادُ، فلمْ ... يكنْ عليها لخائفٍ وَأَلَهْ

قال: ما رأيُك في عثمان؟

قال: خَتَنُ رسول الله ﷺ على ابنتيه، ولم أُنْكره، ولي محصول رأي.

قال: فما تقولُ في معاوية؟

قال: جوادٌ حليم.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ١٣١، الوأل والوألة: اللجوء والنجاة، الخفافيث: الأفاعي الكبيرة التي لاتؤذي. الأصلة: جنس من الحيات وهو أخبثها، الزمرة: ج زامر.

(٢) هذا مثل يضرب لمن يسير إلى حتفه بقدميه، والحائن: الهالك، تمثال الأمثال ١/ ١٠٨.

قال: فما تقول فيَّ؟

قال: بلغني أنك قلتَ بالبصرة: والله لآخذَنَّ البريءَ بالسقيم، والمُقْبلَ بالمدبر.

قال: قد قلت ذاك.

قال: خَبَطْتَها عشواءَ.

قال زياد: ليس النفاخ بشرٍّ الزَّمَرة. فقتله».

لقد حاور زياد ابن أبيه أوفى بنَ حصن كما يحاور الصَّياد المدجَّجُ بالسلاح فريسةً مقيَّدة. وهذا الحوار غير المتكافئ الطرفين لا يدلُّ على دهاء زياد بقدر ما يدلُّ على بطشه، ولو أنه حنث بيمينه، فلم يأخذ البريء بالمذنب أو قدّر صراحة خصمه حقَّ قدرها لكان الحَنثُ والعفوُ والكفارة أولى من البرِّ باليمين، والفتك بالناس. لكنه كان يصدرُ عن الدنيا لا عن الدين، ويحكمُ بالسلطة المتجبرة لا بما أنزل الله.

ولا تستطيع أن تُدْرك ما في هذا الحوار من جبروت بغيض حتى تقرنه بحوار دار بين أصحاب عبد الله بن مطيع ومحمد بن الحنفية في خلافة يزيد؛ حينئذٍ تدرك أن الورع يبغِّض الدنيا إلى أهل الدين، فلا يصدرون فيما يحاورون عن المصالح والأهواء، وإنما يصدرون عن أحكام الحلال والحرام. وإليك نصَّ هذه المحاورة:

قال ابن كثير[1]: «مشى عبدُ الله بن مطيع وأصحابه- وقد خلع أهلُ المدينة طاعةَ يزيد بن معاوية وولَّوْه عليهم- إلى محمد بن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد، فأبى عليهم.

قال ابن مطيع: إنَّ يزيد يشربُ الخمر، ويتركُ الصلاة، ويتعدَّى حكم الكتاب.

فقال لهم: ما رأيتُ فيه ما تذكرون. وقد حضرتُه، وأقمتُ عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرِّياً للخير، يسألُ عن الفقه، ملازماً للسنة.

قالوا: فإنّ ذلك كان منه تصنُّعاً لك.

فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يُظهر الخشوعَ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئنْ كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاء. وإن لم

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٣٣.

يكن أطلعكم فما يحلُّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا.

قالوا: إنه عندنا لحقٌّ، وإن لم نكن رأيناه.

فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٨٦] ولست منْ أمركم بشيء.

قالوا: لعلك تكره أن يتولى الأمرَ غيرُك، فنحن نولّيك أمرنا.

قال: ما أستحلُّ القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً.

قالوا: فقد قاتلتَ مع أبيك.

قال: جيئوني بمثل أبي أقاتلْ على مثل ما قاتل عليه.

قالوا: فمرْ ابنَيْكَ أبا القاسم والقاسمَ بالقتال معنا.

قال: لو أمرتُهما قاتلت.

قالوا: فقُمْ معنا مقاماً، تحضُّ الناس فيه على القتال.

قال: سبحان الله! آمرُ الناس بما لا أفعلُه ولا أرضاه؟ إذنْ ما نصحتُ لله في عباده.

قالوا: إذن نكرهك.

قال: إذن آمرُ الناس بتقوى الله، ولا يُرضون المخلوق بسخط الخالق». وخرج إلى مكة.

لقد امتُحِنَ أهلُ البيت في حياتهم السياسية بما لم تُمْتحنْ به أسرةٌ أخرى من تردُّد الأتباع وتقلُّبهم إلى جانب ما امتُحنوا به من اضطهاد الخُصوم وظلمهم. إن آثروا العافية، ورفضوا أن يطلبوا الحق بالسيف، رماهم أنصارهم بالخوف والمصانعة، وإنْ أجابوا إلى القتال ارفضوا عنهم وخذلوهم، حتى غدتْ محاورتهم مَنْ يظاهرونهم أشقَّ عليهم من مناظرتهم مَنْ ينافرونهم. وأشقُّ من ذلك كلِّه- وهو أشقى ما شقي به الأئمة- أن بين أتباعهم مَنْ كانوا يحاورونهم ليفرضوا عليهم آراءَهم، وليعلِّموهم لا ليتعلَّموا منهم.

ذكر الطبريُّ[1] أن نفراً من زعماء الشيعة الذين بايعوا زيدَ بنَ عليّ اجتمعوا إليه ليحاوروه.

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٢٧٢.

«فقالوا: رحمَك الله، ما قولُك في أبي بكر وعمر؟

قال: رحمهما الله، وغفر لهما، ما سمعتُ أحداً من أهل بيتي يتبرَّأ منهما، ولا يقولُ فيهما إلَّا خيراً.

قالوا: فلِمَ تطلبُ إذن بدم أهل هذا البيت إلَّا أن وثبا على سلطانكم، فنزعاه من أيديكم!؟

فقال لهم: أشدُّ ما أقولُ فيما ذكرتم أنا كنا أحقَّ بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وأنَّ القومَ استأثروا علينا، ودفعونا عنه، ولم يبلغْ ذلك عندنا بهم كفراً. قد وُلُّوا فعدلوا في الناس، وعملوا بالكتاب والسنة.

قالوا: فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك. فلِمَ تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين؟

فقال: إنَّ هؤلاء ليسوا كأولئك.إن هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم. وإنما ندعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وإلى السنن أن تُحْيا، وإلى البدع أن تُطْفأَ. فإن أنتم أجبتمونا سعدتم، وأن أنتم أَبَيْتم فلست عليكم بوكيل.

ففارقوه، ونكثوا بيعته».

أمّا الأمويون فإنهم كانوا فيما حاوروا به أنصارَهم وخصومهم يبلغون ما يبتغون، إذْ كانوا يخوِّفون الخصوم أو يتألَّفونهم، ويُغدقون على الأنصار من الأعطيات ما يشترون به ألسنتهم، فلا يسمعون غير الموافقة. فلَمَّا انهارت الدولة لم يستطع مروانُ بن محمد بكلِّ ما أُوتي من حزم في القيادة، وفصاحة في الحوار، ومهارة في الإدارة أن يكفَّ عنه المحاورات الناقدة أو الشامتة.

جاء في تاريخ ابن عساكر الحوارُ القصير التالي بين مروان بن محمد وأحد خدمه[1]:

«قال مروان- وقد أُحيط به- لخادم يقوم على رأسه: أَلا ترى ما نحن فيه؟ لهفى على يدٍ ما ذُكِرتْ، ونعمةٍ ما شُكرت، ودولة ما نُصِرت.

فقال له خادمُه: يا أمير المؤمنين، مَنْ تركَ القليلَ حتى يكثر، والصغيرَ حتى يكبر، والخفيَّ حتى يظهر، وأخَّر فعلَ اليوم لغدٍ، حلَّ به أكثر مِن هذا».

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٤/ ٢٢١.

ويُخيَّلُ إلينا أن كلَّ محاورة سياسية من محاورات العصر الأموي، مهما تكنْ قصيرة، تنطوي على حقيقتين: أولاهما أنها تصوِّر جانباً من الوضع السياسي الذي كانت عليه الدولة، والثانية أنها تُفصح عن شخصيتي: المحاور والمحاوَر. فإذا أعدت النظر في الفقرة السابقة تبيَّن لك أن الدولة الأموية كانت إلى انهيار، وأن ذكاء مروان بن محمد لا يستطيع أن يداوي غباء من سبقه، فيرقع ما تخرَّق، ويرمَّ ما تداعى.

وإذا قرأت الحوارَ التالي بين زياد ابن أبيه ومعاوية بن أبي سفيان تجلَّى دهاءُ معاوية وحلمُه، ومضاءُ زياد وظلمُه، واستنتجت منه أن الخليفة كان يتغاضى عن بطش الوالي ليحملَ عليه أوزار الاضطهاد، وتبقى شخصيةُ معاوية محبَّبةً أو مقرَّبةً إلى الناس. روى ابن عساكر هذا الحوار القصير، فقال[١]:

«قال معاوية: ما بلغَ من سياستك يا أبا المغيرة؟

قال زياد: أَقمْتُهم بعد جَنَف، وكففْتُهم عمَّا لا يُعْرف بما يعرف، فأذعنَ المعاند عن الحقّ رغبة، وخضع المبتدع رهبة.

قال: وبم صيَّرتَهم إلى ذلك؟

قال: بالمُرهفات القواضب، أمضيتُها بالعزم، يتبعُه الحزم.

قال: لكني ضبطتُ مُلكي بالحلم عند انبراء القويِّ الألدِّ، مع تودّدي إلى العامَّة، وأداء حقوقهم، وتعقيب بعوثهم[٢]، فسلمت لي الصدورُ عفواً، وانقادت الإحنة[٣] طوْعاً، فأنا أَسْوَسُ منك.

قال: صدقت».

وليس من المستغرب أن تقعَ على حوار سياسي، يبزُّ فيه التابعُ المتبوعَ في الدهاء، فيدعو الكبير إلى الفتك، والعفوُ أَوْلى، وإلى إعمال السيف وإعمالُ العقل أجدى. ومن يقرأ الحوار اللاحق، ويقرنه بالحوار السابق ينكشفْ له من أسرار السياسة ما يسوِّغ نجاحَ معاوية، وإخفاقَ عبدِ الله بن الزبير، ويدْركْ أن دهاءَ معاوية حقيقةٌ، ودهاءَ ابن الزبير وهمٌ.

---

(١) المصدر السابق ١١/١٢٦ الجنف: الميل والجور.

(٢) أن يرد قوماً من المقاتلة إلى أهليهم ومنازلهم ويبعث آخرين مكانهم.

(٣) الحقد.

كان يزيدُ بن معاوية قد ولى الحصينَ بنَ النمير قيادةَ الجيش الذي حاصرَ مكة، وفي أثناءِ الحصار مات يزيدُ، فكشف الحصينُ الحصارَ، وأرسل إلى ابن الزبير يصالحه، ويحاورُه الحوار التالي[١]:

«قال الحصين: إن الذي وجَّهنا لمحاربتك قد هلك، فهل لك في الموادعة، وتفتح لنا الأبوابَ؛ فنطوف بالبيت، ويختلط الناسُ بعضُهم ببعض؟

فقبل ابن الزبير ذلك. وبينا كان ابنُ الزبير يطوفُ بالبيت، ويدُه في يد الحصين بن نمير.... قال الحصين سِرّاً لابن الزبير: هل لك في الخروج معي إلى الشام، فأدعو الناسَ إلى بيعتك؟ فإنَّ أمرهم قد مَرَجَ، ولا أرى أحداً أحقَّ بها اليوم منك، ولستُ أُعْصَى هناك.

فاجتذب ابنُ الزبير يدَه من يد حصين، وقال وهو يجهرُ بصوته: أدونَ أن أقتلَ بكلِّ رجلٍ من أهل الحجاز عشرةً من أهل الشام؟

فقال الحصينُ: لقد كذبَ من زعمَ أنك من دُهاة العرب؛ أُكلِّمُك سرّاً، وتُكلِّمني علانيةً، وأدعوك إلى الخلافة، وتدعوني إلى الحرب!».

جـ- سمات المناظرات والمحاورات مستخرجة من محاورة واحدة

في باب الرسائل كنا قد استخرجنا سماتِ الترسُّل في العصر الأموي من رسالة بعثَ بها أبو سلمةَ الأعرج إلى ابن شهابٍ الزهري. ووجدْنا أن هذا النمطَ من الدرس التطبيقي أَعْوَدُ على القارئ عائدةً، وأتَمُّ فائدة، لأنه يشفعُ الرأي بالدليل، والتحليلَ بالتمثيل. ونحاولُ ههنا أن نسلكَ ما سلكْنا هناك، فنستخرجَ خصائصَ التناظر والتحاور من مُحاورة واحدة، انعقدتْ سنة٧٣هـ بين عبد الله بن الزبير وأمِّه أسماءَ بنتِ أبي بكر.

١) نص المحاورة[٢]

«دخلَ ابنُ الزبير على أمِّه حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم.

---

(١) الوثائق السياسية والإدارية/ ١٩٢.

(٢) أعلام النساء١/ ٤٧، وهي رواية ملفقة من روايات عدة، انظر تاريخ الطبري٧/ ٢٠٢، والبداية والنهاية ٨/ ٣٣٠.

فقال: يا أمَّه، خَذَلني الناسُ حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسيرُ ممَّن ليس عنده من الدفع أكثرُ من صبرِ ساعة، والقومُ يُعْطونني ما أردتُ من الدنيا. فما رأيُكِ؟ فقالت أسماء: أنتَ -والله يا بنيَّ- أَعْلَمُ بنفسك، إنْ كنت تعلمُ أنك على حقّ، وإليه تدعو فامضِ له، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبدُ أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت مَنْ قُتِل معك. وإن قلت: كنت على حقّ، فلَمَّا وهن أصحابي ضعفتُ، فهذا ليس فعلَ الأحرار ولا أهلِ الدين. وكم خلودُك في الدنيا؟ القتلُ أحسنُ.

فدنا منها ابنُ الزبير فقبَّلَ رأسها.

فقالت حين مسَّت الدرع: ما هذا صنيعُ مَنْ يريدُ ما تريد!؟

قال: ما لبست هذه الدرع إلَّا لأشدَّ منك.

قالت العجوز: فإنها لا تشدُّ مني. فَنَزَعها، ثم أدرجَ كُمَّيْه، وشدَّ أسفل قميصهِ، وجبة خزٍّ تحت القميص، فأدخل أسفلها في المنطقة، وأمّهُ تقول: البسْ ثيابك مُشَمَّرةً. فتناول يدها، فقبَّلها.

فقالت: هذا وداع، فلا تبعد.

قال ابنُ الزبير: جئت مودِّعاً، إني لأرى هذا آخرَ يوم من الدنيا يمرُّ بي. واعلمي يا أمَّهْ أني إن قُتلت فإنَّما أنا لحم، لا يضرُّني ما صُنِعَ بي.

قالت: صدقتَ يا بني، أتْمِمْ على بصيرتك.

قال: هذا والله رأيي، والذي قمتُ به داعياً إلى يومي هذا، ما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أحببتُ الحياةَ فيها، وما دعاني إلى الخروج إلَّا الغضبُ لله أن تُسْتحلَّ حُرَمُه، ولكني أحببتُ أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرةً مع بصيرتي. فانظري يا أمَّهْ، فإني مقتولٌ من يومي هذا فلا يشتدَّ حزنُك، وسلِّمي الأمرَ لله، فإن ابنك لم يتعمَّدْ إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجُرْ في حكم الله، ولم يغدرْ في أمان، ولم يتعمَّد ظلمَ مسلم ولا معاهد. ولم يبلغني ظلمٌ عن عمالي، فرضيتُ به، بل أنكرته. ولم يكن شيءٌ آثَرَ عندي من رضى ربي، اللهم إني لا أقولُ هذا تزكيةً مني لنفسي، أنت أعلمُ بي، ولكن أقولُه تعزيةً لأمي لتسلو عني.

فقالتْ أمُّه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حَسَناً إن تقدَّمْتَني. وإن تقدَّمْتُك ففي نفسي. اخرجْ حتى أنظر إلى ما يصيرُ أمرُك.

قال: جزاكِ الله، يا أمَّه، خيراً. فلا تدعي الدعاءَ لي قبلُ وبعدُ.

فقالت: لا أدَعُه أبداً. فمَنْ قُتِل على باطل، فقد قُتلت على حق. ثم قالتْ: اللهم، ارحمْ طولَ ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكَّةَ، وبرَّه بأبيه وبي، اللهمَّ قد سلَّمْتُه لأمرك فيه، ورضيتُ بما قضيتَ، فأثبني في عبد الله ثوابَ الصابرين الشاكرين».

٢) المتحاوران

دارت المحاورةُ بين اثنين من أعظم الصحابة، وأقربهم إلى رسولِ الله ﷺ. أمَّا الأولُ فهو عبد الله بن الزبير القرشي الأسدي، أبوه الزبيرُ بن العوام أحدُ العشرة المبشرين بالجنة، وأمُّه أسماءُ بنت أبي بكر القرشية العدوية، وأخت عائشة أم المؤمنين لأبيها، ولد في المدينة في العام الهجري الأوَّل. وكان مولده بهجة غامرة للمهاجرين، فلما شبَّ أصبح فارس قريش في زمانه. وشهد فتح إفريقية زمنَ عثمان، وعقبَ موت يزيد ثار ببني أمية، وبويع له بالخلافة، فبسط سلطانَه على الحجاز واليمن والعراق وخراسان. وفي عهد عبد الملك انتقل ابن الزبير من المدينة إلى مكة، فجعلها حاضرة الخلافة. ونشبت بينه وبين بني أمية معاركُ طاحنة انتهت بمقتله سنة ٧٣هـ وعمره ثلاث وسبعون سنة.

ترجم حياته ابن كثير وأطال، وسمَّاه أمير المؤمنين. وممّا جاء في هذه الترجمة: «ولدته أسماء بقباء أول مقدمهم المدينة، فأتت به رسول الله ﷺ، فحنَّكه، وسمَّاه عبد الله، وفرح المسلمون به، لأنه كانت اليهود قد زعموا أنَّهم سَحَروا المهاجرين، فلا يولَدُ لهم في المدينة.. وأذَّن الصدِّيقُ في أذنه، وكبَّر المسلمون حين ولد.وكان إذا دخل في الصلاة خرج من كلِّ شيء إليها... سُئل ابن عباس عنه، فقال: كان قارئاً لكتاب الله، متَّبعاً لسنة رسول الله، قانتاً لله، صائماً في الهواجر من مخافة الله... وقال بعضُهم: كان ابن الزبير لا ينازَعُ في ثلاث: العبادةِ والشجاعةِ والفصاحةِ... وكان ذا أنفة، له نفسٌ شريفة، وهمَّةٌ عالية.. إذا نظرت إليه في أمر دنياه قلتَ: هذا رجل لم يُردِ الله والدار الآخرة طرفةَ عَيْن. وإذا نظرْتَ إليه في أمر آخرته قلتَ: هذا رجلٌ لم يردِ الدنيا طرفة عَيْن».

وأمَّا أسماءُ فقد ترجم حياتَها عمر رضا كحَّالة ترجمة مفصَّلة، جاء فيها[١]: «أسماءُ بنت أبي بكر الصدِّيق مهاجرةٌ جليلة، وسيدةٌ كبيرةٌ بعقلها وعزَّة نفسِها وقوةِ إرادتها. وُلدتْ سنة ٢٧ قبل الهجرة، وهي أكبرُ من أختها لأبيها عائشة أم المؤمنين بعشر سنين... ودُعيت بذات النطاقين. وكان أهلُ الشام يعيِّرون ابنَ الزبير بذاتِ النطاقين، فقالت لابنها: أعيَّروك؟ قال: نعم. قالتْ: فهو والله حقٌّ. وقالت أسماءُ لمَّا قابلت الحجَّاج: وكيف تعيِّرُ عبدَ الله بذاتِ النطاقين؟ أجلْ، قد كان لي نطاق لابدَّ للنساء منه، ونطاقٌ أغطِّي به طعامَ رسول الله.

أسلمتْ أسماء بمكة بعد إسلام سبعةَ عشر إنساناً، وبايعت النبيَّ ﷺ، وآمنت به إيماناً قويّاً. وشهدتْ وقعةَ اليرموك مع زوجها الزبير، وأبلتْ فيها بلاءً حسناً... وكانت ذاتَ جودٍ وكرم، لا تدَّخر شيئاً. فكانت تمرضُ المرضة، فتعتق كل مملوك لديها».

وقال ابنُ كثير في ترجمتها[٢]: «وقد عُمِّرت أسماءُ دهراً صالحاً، وأضرَّتْ في آخر عمرها [أي عميتْ]. وقيل بل كانت صحيحةَ البصر. وقد أدركت قتلَ ولدها، وعاشتْ بعده مئةَ يوم- وهو الأشهرُ- وبلغتْ من العمر مئةَ سنة، ولم تسقطْ لها سنّ، ولم يُنكر لها عقلٌ.. وهي آخرُ المهاجرين والمهاجرات موتاً».

٣) سبب الحوار

تحدَّث ابن كثير عن سبب الحوار، فقال[٣]: «استهلَّتْ سنةُ ثلاثٍ وسبعين، وأهلُ الشام محاصِرون أهلَ مكة، وقد نصب الحجَّاجُ المنجنيقَ على مكةَ ليحصرَ أهلَها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك. وكان مع الحجَّاج الحبشةُ، فجعلوا يرمون بالمنجنيق، فقتلوا خلقاً كثيراً. وكان معه خمسةُ مجانيق، فألحَّ عليها بالرمي من كلِّ مكان، وحبس عنها الميرةَ والماءَ. قيل لابن الزبير: ألا تكلِّمهم في الصلح، فقال: والله لو وجدوكم في جوف الكعبة

(١) أعلام النساء ١/ ٤٥.
(٢) البداية والنهاية ٨/ ٣٤٦.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٣٣٢.

لذبحوكم جميعاً. والله لا أسألُهم صلحاً أبداً... وما زال أهلُ مكة يخرجون إلى الحجَّاج بالأمان، ويتركون ابنَ الزبير، حتى خرج إليه قريبٌ من عشرة آلاف، فأمَّنهم، وقلَّ أصحابُ الزبير جدّاً، حتى خرج إلى الحجاج حمزةُ وخُبيْب ابنا عبد الله بن الزبير فأخذا لأنفسهما أماناً من الحجّاج، فأمّنهما». فلمَّا أُسْقِطَ في يد ابن الزبير دخل على أمِّه، وحاورَها الحوارَ السابق.

٤) أبرز الأفكار

تنطوي المحاورة على أفكار دينية وسياسية وعسكرية، يكمل بعضها بعضاً، أو يصدر بعضُها عن بعض. وهي بهذا التكامل تصنع ملحمة من ملاحم البطولة في تاريخ الأدب العربي، وترسم صورة مشرقة من صور الموت في سبيل الحقّ والمبدأ. وأبرز أفكارها:

- حيْرة ابن الزبير بين مقاومة الحجاج ومسالمته. وسبب الحيرة أن أكثر الزبيريين خذلوا زعيمهم، وخرجوا من مكة، وتركوه في ثلة قليلة، لا قِبَلَ لها بدَرْء الحجاج.
- شجاعةُ أسماء، ورفضُها المصالحة، وتفنيدُها كلَّ رأي رآه ولدها، أو يمكن أن يراه ليسوّغ الاستسلام.
- إيمان أسماء بشرف الجهاد، وتحريمُها أن يستسلم القائد، أو يتراجع عن الحرب حفاظاً على حياته، لأن في ذلك الاستسلام خيانةً لمن قُتلوا، وهم يدافعون عن مبدئه.
- الإيمانُ بأن الموت قضاءٌ إلهي، لا يعصم الإنسانَ منه حصنٌ ولا درعٌ، وأن الحذر لا يُنجي من القدر.
- الحاكم الصالح، هو من يُحارب ليقمع الفسادَ، ويحكم بما أنزل الله، ويقيم العدل، لا الباحثُ عن المنصب والمال.
- اعتزازُ ابن الزبير ببراءته من الآثام والمظالم، وبإخلاصه لله، لا ليزَكّيَ نفسه، بل ليطمئن أمَّه.

ويمكن تلخيصُ هذه الأفكار بعبارة واحدة؛ وهي: إيثار الموت في سبيل المبدأ على العيش الذليل.

٥) سماته الفكرية والفنية

لا يُخطئُ من يَعُدُّ هذا النصَّ أرقى النصوص الحوارية التي تمثِّل النثرَ الفنيَّ في العصر الأموي، لأَنه يتضمَّنُ كثيراً من القيم الدينية، ويصوِّرُ جانباً من الصَّخب السياسيّ، ويمثل موقفاً عنيفاً من مواقف الصراع الحزبيّ الذي كاد يمزق الأمة العربية، وراح يُسْخط الأطرافَ على القلب، ويقلبُ موازين الزَّعامة، فيحكِّمُ اللاحقين بالسابقين، ويُشْلي الساقَةَ على الطليعة، ولذلك كان جديراً بالاختيار، فما أبرزُ سماته الفكرية والفنية؟

أ) ظهور الفكر الإسلامي

ممَّا ترجم به المؤرخون حياةَ أسماء وحياة ولدها عبد الله يتبيَّنُ لك أن الأمّ والوَلَد من أقرب الناس إلى الأسرة النبوية. فأسماءُ كانت الحاملة الناقلة للزاد النبوي إلى الغار. وعبد الله كان الخرَّاج الولّاج على خالته عائشة أمّ المؤمنين. فهما من أهل البيت أدباً، وإن لم يكونا منهم نسباً. ولهذا فليس من المستغرب أن يتجلَّى الفكر الإسلامي في كلِّ جزء من أجزاء المحاورة:

فالتعلُّق بالحكم يعني التعلُّقَ بشهوات الدنيا، وخيانةُ القائد أتباعه يُخْرجه من أهل الدين، وسعيُ ابن الزبير إلى الخلافة كان من باب التعصُّب لله والغضب له، وإحلال الحلال، وتحريم الحرام. وأهمُّ فضائل الحاكم الصالح تجنُّب الفواحش، والحرصُ على مرضاة الله، وخير ما يلتمسه من جهاده في الدنيا الظفرُ بالأجر في الآخرة. والولد قبل أن يفارقَ أمَّه يلتمس رضوانها، فتشيِّعه أسماءُ بالدعاء لا بالبكاء، وتتشفَّع له فيما تلتمس بصيامه وقيامه وإخلاصه في العبادة، وتختم المحاورة بهذه الضراعة المؤمنة: «فأثبني في عبد الله ثوابَ الصابرين الشاكرين».

وإلى جانب هذه المعاني الظاهرة قد تستنبطُ أفكاراً خفيّةً تتراءَى على استحياء وراءَ الألفاظ. ومنها أن العملَ يُقاس بالنية المُضْمرة لا بالعوارض الظاهرة، وأن العلاقةَ بين الأمِّ والولد تقومُ على الطاعة والبرِّ، وأن الراعيَ يتحمَّل مسؤوليةَ الرعية، فعليه أن يحاسِبَ نفسَه قبل أن يحاسبه ربُّه. ومنها الاستسلامُ لقضاءِ الله وقدَرِه، وبسطُ الحماية على أهل الكتاب، لأن لهم على المسلمين ذمةً. والازدجارُ عن أن يزكِّي الإنسان نفسَه لأن الله أعلمُ منه بخيره وشره.

ب) ترابط الفكرة ووحدتها

لعلَّك لاحظت أن المحاورة - على الرغم من امتدادها- ظلَّتْ محافظةً على وَحْدة الموضوع، وترابط المعاني، وتجنَّبت التشعُّث والاستطراد، والخروجَ إلى أفكار جانبية لا ترتبطُ بالغرض المحوري. كأن كاتباً من كتَّاب المسرح البارعين أنطقَ الشخصيتين المتحاورتين بعبارات موجزة مركزة، قُدَّتْ على قدِّ الموقف، وبَثَّ فيها روحَ الحيوية والتأثير، وصاغها صياغةً لغوية، تكفلُ لها القدرة على أن تطوِّرَ الفكرة، وترقى بها على نحو متدرِّج من الهدوء إلى التوتر، ومن الطمأنينة إلى القلق، لكي يشوق السامع أو المشاهد، ويشدَّه إلى متابعة المشهد.

وأهمُّ الوسائل التي توسَّل بها إلى هذه الغاية تقصيرُ الجمل، والإكثارُ من الإنشاء: كالأمر والنهي والنداء والاستفهام، وقوةُ الجدال، وتوليدُ الأفكار بعضِها من بعض، وربطُ الأجوبة بالأسئلة، وتأييدُ المعاني بحجج دامغة لا يمكن دحضها، لأنها مستلهمة من العقيدة أو الشريعة.

ج) عمق المضمون السياسي

قد يعجبُك ما في المحاورة من فكر ديني يحدِّدُ معانيَها، وإطار اجتماعي يكنفُ المعاني والسلوك، ويدفع الابن إلى البرِّ بالأمِّ، فيقدِّم طاعتها على سلامته، ويخلع الدرعَ، ويخرج إلى لقاء العدو حاسراً مُشمّراً، كأنه يطلب الموت لا النصر لإرضاء أمه. ما يعجبُك جديرٌ بالإعجاب غير أن المضمون السياسي أهمُّ ما في المحاورة، وأوْلى من سواه بالنظر والتحليل.

فالمحاورةُ تضعُ بين يدي القارئ صورة واضحة الخطوط والظلال، ناصعةَ الألوان، يتمثل فيها الصراعُ السياسي بين الأحزاب، ويذكر الوسائل التي توسَّل بها الزعماءُ إلى الظفر بالخلافة. فَوُفّق من سلك إليها سبيلَ الدنيا، وأخفق من سلك إليها سبيلَ الآخرة، لأن الأول صدرَ عن نظرة واقعية إلى الحياة، والثاني نظر إلى السياسة بعين التصوُّر المثالي للحكم. فاز بها الأمويون، لأنهم فهموا طبائع البشر، وعرفوا كيف يُرغّبون ويُرهّبون. ولم يفزْ بها الشيعة والخوارج والزبيريون لأنهم رهَّبوا ولم يرغّبوا، وتوهَّموا أن النصر لقوة المبدأ، والإخلاص للحق، والمساواة بين الناس. وعن هذا الرأي عبَّر عبد الله بن الزبير

حينما قال: «وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ لله أن تُستحلَّ حُرَمهُ». وحينما قال: «إن ابنك لم يتعمَّد إتيانَ منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجُرْ في حكم الله، ولم يغدرْ في أمان، ولم يتعمَّد ظلمَ مُسلْم ولا معاهد».

إن المؤرخ لا يُنكرُ على ابن الزبير قيمةَ هذه المبادئ النظرية الرفيعة، غير أن الزعيم الجديرَ بالحكم، كما أثبتت تجاربُ التاريخ، لا يكتفي بهذه المبادئ، ولا يلتزمُها ولو نادى بها، وإنّما يُضيف إليها الدهاءَ، ويقدِّم عليها شراءَ الأنصار بالمناصب والرغائب، وينتهز السوانح قبل أن تفوته، ويبقى في الوقت نفسه مُحافظاً على المظهر الديني للدولة على النحو الذي تجلَّى في سلوك الأمويين، وأخطأه ابن الزبير، فأخفق، وأهلك نفسه ومن معه.

د) حرارة المشاعر وصدقها

لو كانت هذه المحاورةُ متمحِّضة للسياسة، متجرِّدة من العواطف لساغ لك أن تقول: هي نصٌّ تاريخي لا أدبي، فعلام تُقحمها في النثر الفني؟ ولماذا تضربُها على محكّ النقد الأدبي، ودرسُها بمعايير التاريخ أوْلى؟

حقيقةُ النصّ أنه دينٌ وسياسة، وتاريخٌ وأدب، وأفكارٌ ومشاعر، والأدبُ الإنسانيُّ الرفيعُ لا يرقى بغير هذه المقوّمات العقلية والنفسية. وربّما التقت عواطف هذه المحاورة بعواطف تقاربها في قصائد أو خطب أخرى تصوِّر موقفاً كهذا الموقف، لكنها قلَّما تؤثر في القارئ تأثير هذه المحاورة. فما الذي بثَّ في هذا النص كلَّ تلك المشاعر الحارَّة الصادقة؟ ولماذا طغت شخصية العجوز على شخصية ولدها بطل القصة، حتى غدت في هذا المشهد على الأقل هي الشخصية المحورية؟ وما المشاعرُ التي كانت تتنزّى في صدر ابن الزبير وتُلجئه إلى محاورة أمّه؟

إن الذي بثَّ في النصِّ حرارة العواطف وجعل شخصية العجوز تطغى على هذا المشهد من المسرحية هو الصراعُ بين عاطفتين كلتاهما قوية: الأمومة والشهامة. أمّا الأمومةُ ففطرةٌ، فُطِرتْ عليها كلُّ امرأة، ولو كانت عقيماً لا تحمل ولا ترضع. وأمَّا الشهامة، وإن لم تكن فطرة، فإنها في أسماء خلاصةُ ما اكتسبته من إحساسها بالانتماء إلى أبي بكر الصديق، والعيشِ على صلة وثيقة ببيت النبوة. الأمومةُ تشدُّ ابنها إليها، فلا تعدلُ به أحداً في الدنيا. والشهامةُ تنزعه من

بين يديها، وتقذفهُ في ميدان الصراع، ولهذا كانت أسماءُ ممزَّقة بين عاطفتين، فلمَّا حاورها عبدُ الله غلَّبت الشهامةَ وكظمت الأمومةَ، وهذا التغليبُ لم يُطْفئْ حرارةَ الأمومة بل زادها تضرُّماً وحرقة.

وممّا يدلُّك على صحَّة ما زعمنا أن مقتل ولدها كشفَ عنها أوهامَ الأمجاد السياسية، وأنفةَ الشهامةِ المتعالية، فإذا الفطرة تغلبُ الاكتساب، وإذا أسماءُ أمٌّ قبل كل شيء، تحتضن ولدها وهو في السبعين، كما كانت تحتضنه وهو رضيع.

قال أحد المؤرخين[1]: «إن أحد أنصار عبد الله بن الزبير دخل على عبد الملك بن مروان، فسأله إنزالَ عبد الله بن الزبير من الخشبة، فأمر بإنزاله. وكانت أسماءُ قبل ذلك تقول: اللهم لا تُمِتْني حتى تقرَّ عيني بجثته. فما أتى عليها بعد ذلك جمعةٌ حتى ماتت. ويقال لمَّا جيءَ بعبد الله إلى أمِّه أسماء وضعته في حجرها، فحاضتْ، ودرَّ ثديُها».

أمَّا المشاعر التي كانت تتنزَّى في صدر ابن الزبير، وتدفعُه إلى محاورة أمه فمجموعتان: مجموعةٌ صريحة جليَّة تحملها إليك الألفاظ، ومجموعة مكبوتةٌ خفيَّة، تنقلُها إليك الحركات لا الكلمات، وتترجمُها الأفعال لا الأقوال، قد تكون أقوى من الأولى وأعنف، وأعمق وأصدق، لكننا نذكرها على سبيل التخمين والحدس، لا على سبيل اليقين والقطع.

في المجموعة الأولى تجدُ الإيمانَ بالله وقضائه يمازجُ الثقة بالنفس، وتجدُ التبرُّؤَ من الآثام يخالط طمأنة الأمّ، وهي مشاعر صادقة، لكنها تبدو سطحية إذا قرنت بالمجموعة الثانية. وفي ترجمتها ما يُريح ابنَ الزبير وأمَّه، لأنها تعبر عن البرِّ بالأم، وتعزّيها قبل أن تُصاب مُصابَها المتوقَّع.

وفي المجموعة الثانية - وهي المشاعر الخفية المكظومةُ- يختلط اليأسُ من الحياة بالرهبة من الموت، ويمتزجُ الضعف الإنسانيُّ بالحزن المكبوت. ومهما يدَّع الإنسانُ أنَّه يمقتُ الدنيا، ويتوقُ إلى الآخرة، فإن جزعه من الموت ينقلبُ ساعة الاحتضار إلى هلع. فقد يخيل إليك أن ابن الزبير- وهو يحاور أمه - كان رهينَ هذا الهلع، وأنه ما لجأ إليها لكي يطمئنها ويشدَّ أزرَها، بل لجأ إليها لكي تطمئنَه وتشدَّ أزره، ولكي يستعين بدعائها الضارع لله على مصيره

(١) أعلام النساء١/ ٤٥.

المؤلم. وأنه ما خَلَع الدرع إلَّا بعدما أحسَّ أن دعاءَ أمِّه الصادق يخلعُ عليه من القوة النفسية أكثر ممَّا تخلعُ عليه الدرعُ، ولو كانت من حديد ذي بأس شديد.

وممَّا يُضعف القول بأن هذه العواطف المترددة طغت على المجموعة الأولى ما ذُكر عن ابن الزبير من شجاعة خارقة، ومنها أنه كان - والكلامُ للذهبيّ[١]- قد شهد اليرموكَ وهو مراهق، وأنه - والخبرُ من رواية ابن كثير[٢] - شقَّ جيش البربر بسرية من ثلاثين فارساً، حتى أدرك ملكهم الهارب، فاحتزَّ رأسه، ورجع به على رأس رمحه. فهرب الجيشُ، ومضى المسلمون في فتح إفريقية.

هـ) مجانبة الصنعة

إذا أعدت النظر في نصِّ الحوار، لم تجد فيه مَلْمَحاً واحداً من ملامح الصنعة، فلا مطابقة ولا مجانسة، ولا ازدواج ولا سجع، وإنما هو كلام عفويٌّ مرسل، كأنَّ هيبة الموقف صرفت الأمَّ وولدها عن الفن إلى الفكر، فكان همُّهما أن يتركا في ذِمَّة التاريخ وثيقة تؤرخ الظلم، لا مسرحية تشهدُ لهما بالبيان. لكنهما بالصدق صنعا الاثنتين.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٣.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٤٠٧.